تاريخ الإسلام

في الهند

بقلم : عبد المنعم النمر
عضو بعثة الأزهر والمؤتمر الإسلامي في الهند سابقا

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح - ت : ٥٠٨٥٢

الإهداء

إلى : أرواح الذين صنعوا هذا التاريخ المجيد .

وإلى : كل الذين هيئوا لى ـ من بعيد أو قريب ـ كتابة هذا التاريخ وإخراجه .

وإلى : الذين يسعدهم أن يعرفوا صفحات من تاريخهم الإسلامى المجهول .

وإلى : الذين أناروا لى طريق الحياة بالعلم والمعرفة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حينما ندبنى الأزهر والمؤتمر الإسلامى فى يناير سنة ١٩٥٦ م للسفر إلى الهند والتدريس فى جامعتها الدينيه الكبرى « دار العلوم ـ ديوبند » ، وزيارة مدارسها الدينية فى مختلف بلادها ، شعرت بشىء من القلق الطبيعى لم أستطع له دفعا ، وذلك لأقدامى على السفر إلى بلاد مجهول أمرها عندى وعند الكثيرين ، ووجدت نفسى بين عوامل تدفعنى للسفر : من القيام بالواجب الذى يفرضه على دينى ووطنى ، ومن إشباع غريزة حب الاستطلاع والمعرفة ، وبين عوامل المجازفة بالسفر إلى بلاد لا أعرف عنها ولا عن المسلمين فيها شيئا ، ولا أعرف كيف ستكون الحياة فيها ، سواء داخل الجامعة أم خارجها ، ولم يكن قد سبقنى أحد للسفر إليها فى مثل هذه المهمة ؛ فقد كانت بعثتى أول بعثة من نوعها فى تاريخ العلاقات الثقافية بين مصر والهند . .

وتغلب على شعورى نحو واجبى ، ورغبتى فى معرفة بلاد ليس لدينا الكثير عنها ، وأخذت أبحث هنا وهناك عما يعطينى فكرة عن ماضى المسلمين فى هذه البلاد أو حاضرهم ، فلم أظفر بما يطمئننى ، وكان كل ما عرفته أن محمد ابن قاسم الثقفى القائد العربى الشاب فتح بلاد السند أيام الوليد بن عبد الملك الأموى ، كما فتحها من بعده السلطان محمود الغزنوى . أما غير هذا فكان مجهولا عندى وعند الكثير من المثقفين ، وكل ما كنت أظفر به منهم تعليقهم الطريف : « الهند والسند وبلاد تركب الأفيال » .

وهكذا قبلت الاضطلاع بهذه المهمة ، وكل عدتى إيمان بالله ، وبالأمانة التى وضعت فى عنق ، وتصميم على القيام بها مهما صادفنى من عقبات ومشقات . . .

وسافرت ، والضباب يحيط بي بالنسبة لتاريخ المسلمين فى هذه البلاد ، حتى إذا وصلت إليها ، وأقمت فيها مدة ، أخذت أشعة المعرفة تمزق الضباب الذى أحاط بي ، وأخذت أعرف شيئاً فشيئاً تاريخ المسلمين فيها ، وكانت مفاجأة رائعة لى حقاً : أن أعرف أن المسلمين قد حكموها حكماً متواصلا ثمانية قرون ونصف ، وتركوا فيها من الآثار الخالدة الرائعة ما تزال الهند للآن تعتز به كأثمن شيء تعتز به أمة فى العالم ، وأن هذا الحكم الإسلامى العتيد ، أو هذا الفردوس الإسلامى قد قضى عليه الإنجليز منذ مائة سنة فقط !! نعم منذ مائة سنة فقد المسلمون حكم هذه البلاد ! !

وقد أغرانى ذلك بالبحث والتنقيب ، فتفتحت لى جوانب مشرقة لجهود المسلمين وجهادهم فى هذه البلاد الواسعة الشاسعة ، سواء أكانوا ملوكا أم علماء ، حتى كتبوا فى تاريخ الإسلام صفحات خالدة فى هذا الجزء من العالم .

وعز على كثيراً أن يكون هذا التاريخ المجيد مجهولا من قراء العربية ، وأن يجد منا إهمالا تاماً فى مناهجنا الدراسية ، فى الوقت الذى نعنى فيه بتاريخ الغرب إلى حد الوقوف على تفاصيله ، والاهتمام بنهضاته وأبطاله ، مع أن هذا التاريخ الإسلامى الزاهر فى الهند هو جزء من تاريخنا ، وصفحة مشرقة من صفحات أمجادنا ، كأمة واحدة يظلها علم الإسلام .

تعجبت كيف أسدل على هذا التاريخ ذلك الحجاب الكثيف ، وحيل بيننا وبين معرفته ، والاعتزاز به قرونا متطاولة ، ولم يكن تاريخا هزيلا ، بل كان تاريخا عملاقاً ، استمر كل هذه القرون ، وصنع حضارة من أزهى الحضارات الإسلامية التى عرفناها فى عواصم البلاد العربية ، يوم أن كانت هذه العواصم تصنع التاريخ ، وتصنع معه الحضارات ، بل إن حكم هؤلاء المسلمين الأمجاد قد وصل من القوة إلى الحد الذى ظل فيه سفير جيمس الأول ملك انجلترا أكثر من سنتين فى الهند يحاول مقابلة الملك جهانگير فلم يظفر بما يريد ، فتضرع أن يأخذ كتابا منه إلى ملك انجلترا ، فرد عليه الوزير الأول قائلا : « إن مما لا يناسب

قدر ملك مغولى مسلم أن يكتب كتابا إلى سيد جزيرة صغيرة ، يسكنها صيادون بائسون » ، وكان هذا فى أوائل القرن السابع عشر بعد ما تأسست الشركة الانجليزية سنة ١٦٠٠ م .

نعم عز على إهمال هذا التاريخ ، وشعرت بأنى أمام عبء جديد ، وأمانة يجب أن أتحملها وأؤديها مهما صادفنى من عقبات ، فقد أتيح لى ما لم يتح لغيرى من قبل ، وانفعلت نفسى بمشاهد هذا التاريخ التى لاتزال معالمها الرائعة تحدث كل من رآها بمجد أصحابها وعظمتهم ، أفأملك بعد ذلك أن أرى وأسكت ؟ ! أو أن أعرف فأكتم ، وأحتفظ لنفسى بهذه المعرفة ؟ ! وكنت كلما عرفت شيئا دفعنى إلى المزيد من المعرفة والاطلاع ، كصائد الجواهر كلما عثر على شىء منها أغرى بالبحث عن مزيد عليها ، وسهلت لى مكتبة دار العلوم الضخمة هذه المهمة ، حيث وضعت تحت يدى كل ما يمكن أن يلقى ضوءاً على هذا التاريخ من كتب عربية وأوردية . .

وبدأت أحبس نفسى بين هذه الكتب ، وأنفق كل ما أملكه من فراغ لقراءتها ، مستهينا بكل تعب أمام لذة المعرفة ، وفتح مغاليق هذا التاريخ ، وبدأت بالكتب التاريخية العربية مثل ابن الأثير ومعجم البلدان وفتوح البلدان، وغيرها من المراجع العربية القديمة وسرت معها ، ولكنها توقفت ، حيث وقف بأصحابها ركب الحياة ، ولما أقطع من الشوط إلا أوله ، إلى حيث تاريخ الغوريين ، ولم يكن كل ما مضى إلا بمثابة الألف والباء من هذا التاريخ الطويل .

أما الباقى فقد تكفلت به مصادر باللغة الأوردية مثل تاريخ فرشته لحكيم محمد قاسم ، وتاريخ الهند لسيد هاشمى ومختصر تاريخ الهند للسيد أبى ظفر الندوى ، وتاريخ إسلام لعبد الرحمن شوق ، ومصادر أخرى عنيت بذكرها فى الهامش . وكانت عقبة كفيلة بأن تحطم على صخرتها كل جهد من أمثالى ؛ فلم أكن أجيد اللغة الأوردية حتى أمضى فى مهمتى بسهولة ويسر ، ولكن معرفتى التى حصلت عليها من هذه اللغة ألقت على طريقى شيئا من النور ، وإن لم يكن كل

النور الذى أحتاج إليه فى كتابة تاريخ كهذا ، لكنى أمسكت بالخيط ، ولا يمكن - بعد ذلك - أن أتركه يفلت من يدى حتى أتم ما بدأته ، وأسير فى الطريق إلى نهايته ، ووجدت العون الذى أرتجيه فى طلابى بقسم تخصص اللغة العربية الذى أنشأته فى الجامعة ، وكان عوناً أجد من الواجب على أن أشيد به هنا وأشكرهم عليه . .

وكنت مع هذا أعتمد على ماتنشره مجلة « ثقافة الهند » أحياناً باللغة العربية ، وهى مجلة تصدرها الحكومة الهندية ، وما نشرته مجلة الضياء العربية التى كانت تصدر عن مدرسة دار العلوم ندوة العلماء فى لكنو ، وقد أهدتها لى الدار مشكورة ، وما جاء فى كتاب حضارة الهند « لجوستاف لوبون » الذى أمدنى به الأخ الشيخ محمد سالم قاسمى المدرس بدار العلوم ، وحاضر العالم الإسلامى للأمير شكيب أرسلان ، وكذلك وجدت فى كتاب « نزهة الخواطر » عن أعيان الهند وعلمائها معونة كبيرة ، وهو تأليف العلامة الشريف عبد الحى الحسنى الندوى اللكنوى ، وقد صدر فى أجزاء لا تزال مطبعة دائرة المعارف العثمانية العربية فى حيدر أباد تكمل طبعه ، وقد أهداه لى شيخ الإسلام وشيخ الجامعة المرحوم مولانا حسين أحمد مدنى ، حينما عرف اشتغالى بوضع مؤلف عن تاريخ المسلمين فى الهند ، كما جاءتنى وأنا هناك مذكرة المرحوم الأستاذ حبيب أحمد « بين الهند وباكستان » وبجانب هذا وقفت على معلومات متناثرة باللغة العربية ، وقد حرصت على ذكر المصادر كلها فى الهامش ، ورأيت فى ذلك ما يكفى عن ذكرها متجمعة .

وقد كانت الصحف والمجلات التى صدرت فى الهند وباكستان وبورما باللغة الأوردية عام ١٩٥٧م بمناسبة مرور مائة عام على ثورة الهند ضد الانجليز سنة ١٨٥٧م ، وما حفلت به من مقالات وبحوث تاريخية عن الثورة ، وعن الحكم الإسلامى ، كانت عونا كبيرا لى فى الكتابة بتفصيل دقيق عن هذه الفترة من تاريخ الهند .

وهكذا تيسر لى جمع المعلومات من هنا وهناك حتى إذا انتهيت من الجمع

والتدوين أخذت من جديد فى ترتيبها وتبويبها ، وكلما مر الوقت اتسعت أمامى الآفاق ، وازدادت معلوماتى عن هذا التاريخ ، حتى جاء الكتاب فى كتابته الثانية والأخيرة كتابا ضخما يجمع معلومات وافية ودقيقة ـ كما أعتقد ـ عن الممالك الإسلامية التى تعاقبت على حكم الهند من سنة ١٠٠١ م إلى سنة ١٨٥٧م ، أى ثمانية قرون ونصف ، واتخذت من « دهلى أو آكرا » عاصمة لها ، وأقامت حضارة إسلامية عظيمة ، تفاخر بها حضارات العالم ، وكذلك عن الممالك الإسلامية الأخرى التى قامت فى نواح متباعدة عن « دهلى » واستقل حكامها بحكمها ، وتنافسوا فيما بينهم فى توسيع رقعتها ، والرقى بشؤونها وإسعاد الرعية فى ظلها .

وقد عنيت مع هذا بالترجمة فى الهامش للشخصيات التى مر ذكرها فى الكتاب ، وكان لها مشاركة فى صنع هذا التاريخ ، مما ستراه إن شاء الله مشبعا لرغبتك فى حب الاستطلاع .

وزيادة منى فى التيقن والاحتياط عرضت ما كتبته على بعض العلماء المعنيين بالتاريخ الإسلامى هناك فاغتبطوا به ، وبما حوى من معلومات وافية ودقيقة .

وقد رأيت من الضرورى — وأنا أكتب عن تاريخ الإسلام ودخوله إلى الهند — أن ألقى ضوءا على الهند قبل الإسلام ، ولا سيما أديانها التى كانت تتقاسمها فى ذلك الوقت ، وأن أذكر ما يعطى القارىء فكرة عامة عن جغرافيتها وإمكانياتها ، فيما يختص بالزراعة والصناعة والتجارة والأنهار والحيوانات ، وعن الصلات التى كانت بين الهند والعالم العربى عند دخول الإسلام إليها ، حتى يمكن للقارىء أن يقبل على قراءة التاريخ وعنده إلمام بهذه البلاد من كل ناحية .

وفى المدة التى قضيتها فى الهند استطعت أن أحصل على مجموعات من الصور والرسوم التى لابد منها فى توضيح هذا التاريخ ، ولو أنى لم أستطع الحصول على كل ما أريد .

ولهذا أعتقد - فى غير فخر - أن هذا الكتاب بما حوى من معلومات وافية مفصلة لتاريخ الحكم الإسلامى كله ، وبما ضم من صور ورسوم لم تنشر من قبل - هو أول كتاب من نوعه باللغة العربية ، ومن أجل هذا كنت أستهين بالصعوبات التى تجابهنى فى كتابته ، خلال السبعة والعشرين شهرا التى قضيتها فى الهند ، والتى كرست الكثير من وقتى فيها لهذا الكتاب .

وحين انتهيت منه - أو كدت - فى أواخر هذه المدة ، وتمثل أمامى كتاباً ضخما ، بدأت أفكر فى كيفية طبعه ، ولم يكن ذلك يشغلنى من قبل ، وتبدت أمامى صعوبة الطبع وتبعاته ، وهو كتاب لا يحمل المغريات التى تجعل عامة الشعب يقبلون عليه ، وخيل إلى أن هذا المجهود المضنى الذى بذلته خلال هذه المدة الطويلة سيضيع سدى ، ويحكم عليه بالبقاء فى عالم الظلام ، ويحال بذلك بين قراء العربية وبين الاطلاع على معلومات أعتقد أن المكتبة العربية خالية منها .

واستولى على هذا التفكير المقلق مدة . كنت كلما نظرت إلى كراسات الكتاب الضخمة أمامى يزداد تفكيرى ويستبد بى .. ثم بدت لى فكرة رأيت أن أجربها . فمعالى الشيخ محمد سرور الصبان قد عرفته معرفة وثيقة أثناء تدريسى بالمملكة العربية السعودية ، وعرفت أنه يحتضن الكثير من مثل هذه المجهودات - وهو أديب كبير ، وعالم واسع الاطلاع - وينفق كثيرا فى إخراج أمهات الكتب القديمة وبعض الكتب الحديثة النافعة ، فرأيت أن أكتب إليه - بعد تفكير طويل - ولم أنتظر غير أسبوعين حتى تلقيت من معاليه هذا الرد الكريم :

جدة فى ١٠ رجب ١٣٧٧ هـ

صاحب الفضيلة الأخ الأستاذ عبد المنعم النمر المحترم

تحية طيبة . . وبعد .

فقد سعدنا بخطابكم الكريم المؤرخ فى ٢٩ جمادى الثانية ١٣٧٧ هـ وإننا لا نزال نذكركم ، وسنظل نذكركم دائماً بتقدير عميق لطفكم وكريم خلقكم ، وإننا نود أن تخبرونا عن تكاليف طبع كتابكم « تاريخ الهند الإسلامى » . لنكتب لكم بما نراه على ضوء ذلك مع تحياتنا وتقديرنا ؟

محمد سرور الصبان

وحضرت إلى مصر بعد ذلك ، وكان معاليه فى سويسرا ؛ فرأيت أن الظروف غير مناسبة للسير فى هذا الموضوع ، وفاتحت بعض الجهات فى طبعه كما تطبع كثيرا من الكتب الإسلامية على نفقتها ، فلم أجد عندها استعدادا ، وعاد ظلام الحبس يخيم على الكتاب ، وعاد القلق إلى نفسى .

وفى مصادفة طيبة تلاقيت بالصديق الأديب الشيخ محمد خليل العنانى سكرتير الشيخ محمد سرور ، فبادرنى : أين الكتاب ؟ فقلت : إنه موجود ، ولكنى اعتقدت أن الظروف غير مناسبة للكتابة لكم بشأنه .. فقال : إن معالى الشيخ كلفنى وهو فى سويسرا أن أهتم بطبعه بمجرد وصولك إلى مصر .

وهكذا أنجز الكريم وعده ، وأخذ الكتاب طريقه إلى النور ، وإلى أيدى القراء ، بفضل هذه المعاونة الكريمة ، التى أكل شكره عليها إلى من اتجهت إليه بقلبى وإخلاصى ، حين أقبلت على تحمل المشاق ليلا ونهارا أكثر من سنتين ، فى سبيل إنصاف التاريخ العظيم لإخواننا المسلمين فى الهند ، وإزاحة الستار الكثيف عن هذا المجد المجهول المظلوم . . .

* * *

ولن أنسى مطلقا تلك الرسالة الكريمة التى تلقيتها من صديق الأديب الحجازى الكبير الشيخ محمد سعيد العامودى رئيس تحرير مجلة الحج ، حين أرسلت له أولى مقالاتى عن تاريخ المسلمين فى الهند ، وأنبأته عزمى على تأليف كتاب واف عن هذا التاريخ . فقد كانت فرحته بالنبأ وحرصه على نشر هذه المقالات مما ألهب عزمى للسير فى هذا العمل حتى نهايته ، وقد كان دائم السؤال فى كل خطاب منه عن الكتاب ، ومتى أنتهى منه ، حتى إذا علم بأنى شرعت فى طبعه تفضل مشكورا بالإعلان عنه ، والتنويه به فى مجلته .

كما أنى لن أنسى ذلك التشجيع الذى وجدته فى مدير دار العلوم مولانا محمد طيب ومدرسى الدار جميعا ، ومولانا محفوظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزى ، ومولانا محمد ميان المؤرخ الكبير والسكرتير العام لجمعية العلماء ، ومولانا مفتى عتيق الرحمن عضو الجمعية ومدير ندوة المصنفين

فى دهلى ، ومولانا أبى الحسن على الحسنى الندوى المشرف على دار العلوم ندوة العلماء لكنو، الذى دعته فرحته بهذا الكتاب بعد اطلاعه عليه إلى أن يطلب منى قطعة منه لنشرها فى مجلته العربية «البعث» ، وحرص فى تقديمها فى عدد سبتمبر ١٩٥٧ على تقديم الكتاب كله بأنه « سيسد عوزا كبيرا فى المكتبة العربية العصرية » ...

كما أننى أذكر بالشكر والتقدير تلك الكلمة التى كتبها الأخ الأستاذ عبد المنعم العدوى فى مجلته « العرب » التى تصدر فى كراتشى فى ذى الحجة سنة ١٣٧٦ هـ عند ما علم نبأ اشتغالى بتأليف هذا الكتاب والتى قال فيها : « وإنه ليسرنا جدا أن يمضى الأستاذ قدما فى وضع كتابه عن الهند ، فإنه ولاشك سيكون أثرا خالدا للأزهر الشريف والمؤتمر الإسلامى ، إذ أن المصادر العربية التى كتبت عن مسلمى الهند الكبرى قديما وحديثا إسهابا وتفصيلا لانرى منها أمامنا شيئا ، اللهم إلا مقالات كتبت هنا وهناك ، بعضها فى الصحف والمجلات العربية ، وبعضها فى « العرب » ، ولم يضع أحد من الكتاب العرب المعاصرين كتابا عن مسلمى القارة الهندية الباكستانية للآن » ...

وبعد ، فهذا هو الكتاب بين يديك ، يقدم نفسه بنفسه ، لا أدعى أننى قد بلغت فيه درجة العصمة من الخطأ ، فهذا مستحيل ، ولكن الذى يمكن أن أدعيه أننى بذلت أقصى جهد أملكه فى تقديمه إليك بصورة وافية ، تنبئك عن هذا التاريخ المجيد ، فإن وجدت فيه نقصا أو خطأ فإننى أكون شاكرا لو تفضلت بتنبيهى إليه ، حتى أتداركه فى طبعته الثانية ، التى أعتقد أنها ستضم زيادات وتنقيحات مما يمكن أن تمدنى به وتدلنى أنت عليه ، وما يمكن أن أضمه إليه من معلومات جديدة تتكشف لى ، فهذه طبيعة الأشياء دائما : فى تطور .

ويلاحظ القارىء أننى وقفت بهذا التاريخ عند انتهاء حكم المسلمين للهند سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٧م أى منذ قرن ، ولاشك أنه سيجد فى نفسه شوقا ملحا لمتابعة هذا التاريخ ، والسير معه فى هذا القرن الذى خلص فيه حكم الهند تماما

للانجليز ، ومعرفة ما تمخض عنه هذا الحكم فى هذه المدة ، ولا سيما ما يتصل منه بالمسلمين ، وسيجد فى نفسه إلحاحا أكثر من هذا لمعرفة شؤون الهند الحاضرة بعد إنشاء دولة باكستان ، والتحدث عما شاهدته عن كثب فى المدة الطويلة التى مكثتها هناك ، واختلطت بأوساطها المختلفة ، وارتحلت إلى ريفها ومدنها ، شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، مما أتاح لى الحصول على معلومات وافية عن أديان البلاد ، وأحوالها الاجتماعية ، وظروفها المادية ، وطرق معيشتها وتعاملها فيما بينها ، وهى أجناس مختلفة ذات أديان ولغات متباينة ، ثم مدى ما وصلت إليه من تقدم ، وما تبذله من جهد لتعويض ما فاتها ..

وستنتظر ـ بلاشك ـ أن أحدثك عن أحوال المسلمين الآن ، وما عددهم ، وكيف يعيشون ، وما هى أحوالهم السياسة والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية ، وما هى حقيقة التقسيم ، وما حدث فى البلاد من مذابح وأهوال فى هذا الظرف الكئيب ؟ ثم ماذا كانت نتيجة ذلك كله فى ظروف المسلمين الذين يعيشون فى الهند الآن ، وهل يجدون نصيبهم العادل فى وطنهم الذى آثروا الاستقرار والعيش فيه ، وما هى حقيقة مسألة كشمير كما عرفتها ، وما أثرها على مسلمى الهند ، وكيف ينظرون إليها ؟ كل هذا يا أخى تشتاق إليه بلاشك ، كما أشتاق أن أقدمه أيضا إليك ، ولكن هذا الحديث الوافى المتشعب بما يحمل من ذكرياتى ومشاهدتى الواقعية التى أحب أن أنقلها لك بأمانة وصدق وإسهاب ، لا يمكن أن أضمه إلى هذا الكتاب ـ وقد جاء ضخما كما ترى ..

لهذا لم أجد بدا من أن أخصص له كتابا مستقلا . أرجو من الله العون على أن أقدمه لك قريبا .

والله أرجو أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه ، وهو حسبى ونعم النصير . عليه توكلت وإليه أنيب ؟

عبد المنعم النمر

المدرس بالأزهر
وعضو بعثة الأزهر والمؤتمر الإسلامى
فى الهند سابقا

٢١ شارع الرشيدى ــ أرض شريف بشبرا مصر

الأربعاء { ١٢ رجب سنة ١٣٧٨
{ ٢١ يناير سنة ١٩٥٩